ما تيسر من سيرة العشق

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

حسين الشحات

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2016 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2016 - 26049

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 18 - 3

محمد هلال

ما تيسر من سيرة العشق

قصص قصيرة.. وقصيرة جدًّا..
وقصة الومضة..

٢٠١٦

إهـــداء

إلى قطتي الشيرازية..

من يمرح القلب،

والروح في براح عشقها رغم الغياب!!

قدر

كلما هممت لأكتب عنك قصةً أخيرةً،
راجيًا أن يستريح القلب من عنائه
الطويل أراني أبدأ من جديد! فأفوض
أمري إليك، وأكتب: إني أحبك..

قطتي الشيرازية

كلما رتقت ثقوب قلبي حفرتها قطتي الشيرازية بأصابعها الحريرية، وعيونها القاتلة مثل بحر غضبان..

قطتي لا تنام الليل، وتعشق القهوة المرة، وتغني «كذب من ادعى المحبة وغفلت جفون عينيه».. وتذكر ابن عربي والحلاج والسهروردي قتيل صلاح الدين، وشعراء بني عذرة..

قطتي الشيرازية تذوب شوقًا لحبات المطر؛ ولذا أخشى قدوم الشتاء، وأفرش قلبي أرضًا لماء السماء؛ حتى إذا ما ذابت توحدنا من جديد..

صهوات اللذة

كانت تتبختر نشوانةً وكأنها الحواء الحوراء الوحيدة.. تتثنى بدلال ساحر وكأن عذوبة أنهار الجنة تنبع من ساقيها، وقمر الليل الساهر يطلع من تحت الإبطين، والشمس الملتهبة تشرق من جوف السرة..

تتأوه بجنون سكران وكأن الكون بلا آذان تسمع.. تقربني وكأني فارسها الأوحد وأنا في ذلك كله أتعجب!

من أين تجيء الكلمات العذراوات كي أصف جلال أنوثتها وجمال تغنجها؟!

وانفشت صهوات اللذة من مكمنها.. أوه ... ...

جزاها القهار شديد البطش!!

أصوات الديكة، وزقزقة عصافير الفجر أزاحت عن وجداني لذيذ الحلم..

...

انتهت الكلمات وما انتهت اللذة..

استبداد الشوق

كلما استبد بي الشوق تطير أقدامي إلى حيث كنا نسير.. أتحرى وضع القدم مكان القدم آملًا ألا يكون قد خطى عليه غيرنا.. أتنفس بعمق شديد.. ربما استدار الهواء الذي تنفسناه وعاد من جديد وصادف تلهفي..

ولكن الأماكن بغير أشواقها الأولى.. غربة قاتلة وجحيم مجنون.. فأعود مثقلًا باليأس والمرارة.. ولكن؛ كلما استبد بي الشوق لا أجد سوى المرارة سلوى؛ فتطير بي الأقدام إلى حيث كنا نسير..

سور الذكريات

يستهويه المرور فوق كوبري قصر النيل.. ذلك الجسر الواصل بين ضفتي النهر الشرقية والغربية.. يستنشق بعمق شديد الهواء المعطر برائحة الماء مغمض العينين وكأنه في لذة عناق محبوب طال انتظاره..

يقرأ بفرح طفولي كلمات الذكريات التي خطها المحبون على سوره الحديدي العتيق.. يربت بيده فوق نبض حروفها.. يتمنى لو يمتد السور الحنون إلى آخر الدنيا حتى يجد كل عاشق مكانًا لحروف أشواقه..

...

أفزعه ذات يوم ما يفعله عمال الطلاء.. الطلاء الجديد يمحو ذكريات القلوب السعيدة وكأن أحدًا لم يكتب كلمةً واحدةً..

حدثهم.. سخروا منه، واتهموه بالرقة والحنان.. جعل يراقبهم في استسلام قائد مهزوم.. تزاحم في رأسه ضجيج أصوات القنابل والقذائف والرصاص وصراخ الجرحى وجثث ملايين الضحايا؛ فأغمض عينيه بشدة.. وكزه سؤال حزين: «ترى كم مرةً دفن الطلاء الجديد الوحشي القاتم الذكريات الجميلة؟!» ...

حفيدة فاطمة

«أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل».. كانت فاطمة مهرةً عربيةً مثل فرس حرون أذاقته كؤوس اللوع والدلع وغرور الدلال..

وكان امرؤ القيس — أول عربي نسج القوافي — قد بنى لها من الشعر قصورًا وضياعًا وخيامًا، وأجلسها مليكةً متوجةً.. كان جدنا — شاعرنا الأول — يعشق الضياء؛ فاندلق في هواها، والتاع قلبه واحترق.. وفاطم مزكومة القلب لا تشم رائحة شواء الفؤاد المثقل بهواها، ولا ترى قتيل سحر عينيها المـُلْقَى في وادي عشقها..

بعد ألفي عام قالت لي حفيدة فاطمة: «مجنونة أنا في عواطفي.. أنا مثل ملكات النحل.. يموت بطلها بعد فوزه برضابها ورضاها؛ فكن فتى قلبي تمت شهيدًا فوق أجنحتي، وذا خلود تصعد به فردوس العاشقين»..

رفرف قلبي مثل سحابة وطفاء يكاد يسقط حملها؛ حائرًا ما بين ضعفه الموروث من جدنا القديم، وتألهه لعيون قاتلة اشرب حبها! وصرخ: «يا امرأ القيس؛ ما الذي فعلته بنا؟! يا رب القلوب العاشقة ورب تقلبها؛ أأشكو إليك تدلل فاطمة وطغيانها الساحر؟! أم أشكو ضعفي الموروث من جدنا الملك الضليل ابن الحارث الكندي؟!» ...

الاختيار

طوال الطريق من بلدتي إلى ملتقى الشعراء في المدينة أوجع سائق السيارة قلوبنا، وأفزع أرواحنا بحديث الموت وعذاب القبر لشيخه المفضل، وكان قد ألقم أفواهنا حجرًا كبيرًا حين قال: «سأسمعكم حديثًا من ينكره كافر!» كما يقول الشيخ..

بالكاد استجمعت قواي التي هددها شريط الموت بالويل والثبور، وعظائم الأمور طوال ساعة ونصف الساعة؛ في زمن مر كدهر في قعر الجحيم.. وكأن الله سبحانه خلقنا ليعذبنا وفقط..

في الندوة اشتعلت الأكف بالتصفيق ترحب بالشاعر الكبير؛ وخاصة عند وصفه الذين يطيلون لحاهم ويقصرون ثيابهم بالظلاميين.. قلت في نفسي: «والله؛ معك الحق!»

تهيأ الجميع لسماع قصيدته الجديدة.. قال بعد أن قطب جبينه، ووسع من حدقتي عينيه بحروف صارخة مضغوطة:

«أمامكم دقيقة للموت وأخرى للحداد..

أمامكم دقيقتان للحداد والموت..

أيهما شئتم أولًا..

لكم الخيار والحرية المطلقة..»

وصايا ثوري سابق؛ يجلس على كرسي متحرك

لا أتذكر في أي مكان من وطننا العربي الكبير وجدت تلك المخطوطة القديمة؟! فقد مضى وقت طويل والأماكن متشابهة.. كل ما فعلته في تلك الوصايا هو أنني خففت اللغة القديمة لتناسب عصرنا..

قال صاحب الوصايا بعد أن أسهب في وصف شجاعة الضحايا في مواجهة الفاسدين، وإخلاصهم في حب البلاد، وأمنياتهم لنهوضها وتقدمها في مصاف الدول الكبرى.. بينما كان كبار اللصوص يختبئون خارج البلاد وداخلها خشية الموت.. ورجال الدين يختلفون في حكم من مات من الثوار.. أشهيد؟ أم قتيل؟ وأهم من ذلك كله حسب وصفه؛ إن البلاد بعد ربيع الثورة المباركة تراجعت إلى الأسوأ، وعلت من جديد أصوات قدامى الفاسدين والمخنثين الجدد تصف الثوار شهداء ومصابين وناجين بالخونة والعملاء..

تقول الوصايا:

«لاتضحوا بأنفسكم من أجل الحفاظ على الوطن؛ فاللصوص سيحافظون عليه جيدًا؛ فهو منجم سرقاتهم..

لاتضحوا بأرواحكم من أجل العقيدة؛ فالشيوخ المرفهون سيدافعون عنها بطريقتهم، ثم يتهمونكم بالإلحاد والكفر وحب الدنيا؛ كي تزيد حصيلة مكاسبهم من الجنان والنساء..

لاتضحوا بدمائكم أكثر من ذلك؛ فاللون الوردي لا يليق إلا بسيارات الراقصات الفارهة، ويزعج السكارى في إشارات المرور، ويصبغ الإسفلت بالحرية؛ فيزيلونه بكؤوس البيرة وماء البول وطلقات الرصاص الحي»..

تحول

كان الشيطان يطارحني الغرام في شكل امرأة فاتنة الروعة.. لفاء الفخذين.. نافرة النهدين.. مدورة السرة..

هيفاء مقبلة.. عجزاء مدبرة كوصف كعب بن زهير سعاد للرسول.. تتأوه مثل طعين في حشرجة الموت..

ألا لعنة الله على الشيطان حين تحول إلى رجل قبيح!!

الحلاج الجديد

على صليب (الرافعة) تدلى جسد «النعيمي» شامخًا؛ فانسكبت كلمات قصيدته طيورًا بيضاء اللون تفرش الأرض والسماء، وتروي زهور بغداد العطشى للحياة رغم أنهم بلا حياء.. ذروا رفات حروفها في نهر دجلة..

بكى شاعر على صفحات (التواصل)، وقال: «قبل أن يحرقوا جسد الحلاج ويذروا رفاته في دجلة الحزين سال دمه على الأرض، وكتب: الله.. الله أحد.. أحد.. أحد.. في بضع وثلاثين موضعًا، ومن يومها تبكيه مآقي القلوب وعواصم المحبين»..

وقال رجل ينهمر الدم من عينيه بلون الدمع: «لأننا أمة لا تستحي قتلنا حفيده الطيب، وبحبل مفتول باتهامات لا تستحي مثلنا.. تُرَى كم قتلنا ألف حلاج نعيمي بدم بارد دون أن نستحي؟!»

وتمتم شيخ بعد أن (زوقل) العمامة: «قال النبي الذي ما ينطق عن الهوى.. الذين تدركهم الساعة تُبْعث عليهم الحرمة — يعني الغلمة وفجور الشهوة — ويُسْلَبون الحياء»..

صرخ صبي سمع تمتمة الشيخ: «صدقت يا نعيمي!!».. وأشار إلى جثته الشامخة بديوان أشعاره..

مهداة إلى روح «النعيمي».. شاعر العراق المشنوق بقصيدته: «نحن أمة لا تستحي»..

ثلاثة فناجين قهوة

في نشوة فرحتي المجنونة — بعد أن أتممت تعلم قراءة الفنجان بشكل رائع — أعددت لنفسي ثلاثة فناجين من القهوة (السادة) بدون سكر.. خالصة البن بلا إضافات أو (تحويجات) كما يقول الكتاب..

كنت مشوقًا مثل خلق الله أن أعرف ماذا في قابل أيامي رغم انقضاء جل عمري.. فالوجه الطفولي تحول إلى ملامح صخرية تعلوها صلعة كبيرة، وتلازمني علب الدواء كرغيف العيش، ولكن (كرباج) الأمل وسوط الأمنيات لا يتركان في ظهر العمر مكانًا..

اختلفت الكائنات المرسومة في كل فنجان عن الآخر رغم احتسائي لها بجرأة انتحارية في جلسة واحدة..

بشرني الفنجان الثاني بسعة الرزق وتمام الصحة رغم سعالي المتواصل؛ فقد كانت الأعلام والرايات والأشجار الخضراء تملأ الفنجان..

على العكس منه كان الفنجان الأول وجه كلب شرس خلفه ذئب قاتل.. تعلوهما بومة جاحظة العينين يملأها الحقد ضدي.. ويفكرون معًا لضرري..

عبثت رعونة التوقعات والتخمينات برأسي، وطفحت أسئلة الرعب: تُرَى من يكون الكلب؟ ومن يكون الذئب؟ ومن البومة؟ وماذا يدبرون؟ ولماذا؟

أرغمني الفنجان الثالث على الابتسام المر؛ فقد رأيتني ميتًا، وإلى جوار جثتي ساعة حائط كبيرة الحجم جدًّا، ومعنى هذا حسب الكتاب العمر الطويل والرزق الوفير..

طار النوم من عيني والفناجين الثلاثة أمامي أكلمهم: من منكم الصادق؟ تكلموا.. تكلموا.. تكلموا.. فقد أتلفتم أعصابي.. تكلموا.. وإلا حطمتكم جميعًا..

وفجأةً؛ راودتني فكرة أن أصنع فنجانًا رابعًا يكون الفيصل بينهم..

قال المفسرون

رويت لمشايخ بلدتي الحلم الممتع الذي رأيت، وتمنيت لروعته أن يدوم طويلًا حتى لو بقيت نائمًا بقية عمري..

امرأة أبهى ما تكون النساء.. عارية الذراعين والكتفين وحتى منتصف الصدر.. احتوتني بدفء لذيذ.. غمرني عطرها الفردوسي.. وفجأةً؛ استيقظت من نومي.. لكنني بقيت أسير ملكوت سحرها هائمًا لا ساحل لبحر أشواقي..

تمتم شيخ وقال بعد أن مسح على رأسي بيده الناعمة الممتلئة: «هنيئًا لك يا غلام؛ ذاك سر لا تفشيه.. إياك أن تخبر به أحدًا.. تلك المرأة الفردوسية هدية السماء لك.. هي العناية الإلهية، وذا حظك الموفور من الهدية»..

ومرت الأيام تعقبها الأيام وما زلت حائرًا بلا يقين.. وكلما رويت حيرتي لشيخ اليقين أشرقت أسارير وجهه وابتسم قائلًا: «خُلِق الإنسان عجولًا»..

وقال شيخ: «الجارية في المنام يا ولدي عطية الله لعبده، وكلما كانت المرأة جميلةً كانت الأعطية وفيرةً خصيبةً، وإنا نراك نبتًا طيبًا وعرقًا صالحًا.. أطعم الله بك الجائع وأمن بك الخائف»..

ورغم مرور الوقت الطويل لم يتغير حالي القديم..

بعد أن أفاق من رعدة ألمت به فكك مشهدها مفاصلي؛ تمتم شيخ وقال: «نستعيذ بالرؤوف اللطيف الحنان المنان من نائبة النوائب وداهية الدواهي.. فليرحمك الرحيم، وليقل عثرتك، فليس سواه مقيل.. ما رأيت — يا ولدي — فتنةً يطير لها لب الحليم احتوتك ضفافها، ولم تترك شاطئًا للنجاة، فلا تتبع خطوات نفسك السبعية آكلة اللحوم، واتبع طير روحك اللطيف لاقطًا للحب والحب وثمار الشجر»..

ولما كنت لا أعرف لغة الرجل وإشاراته أستغلق على ما يقول.. وكلما عاودت سؤاله قال: «إن استطعت لاتكن من أهل الدنيا»..

وقال شيخ بعد أن ضحك حتى اهتزت لحيته وبدت نواجذه، وربت فوق كتفي بحنان: «لا تشغل بالك فما زلت شابًّا في مقتبل العمر، وسترى من الأحلام الأعاجيب»، ثم همس باسمًا: «لا تشغل فكرك بخيالات النساء»..

مجنون

رأيته مرتين:

واحدةً حين كان يشغل منصب مدير عام في شركة حكومية كبيرة تعلن عن وظائف شاغرة، ورفض التوسط لولده الوحيد رغم تفوقه في التخصص المطلوب..

ومرةً أشعث أغبر يصرخ في ميدان التحرير، ويقول: «صابون لونه أحمر، وآخر لونه أخضر، وغيره لونه أصفر.. يا أيها الناس كل يخرج لونه كي تستقيم الحياة ويباركنا الله»..

أمنية حزينة

عضت أناملها حزنًا رغم فرحها الشديد بالأموال التي تسد ديونها، وجوع عيالها..

تمتمت: «لو كان لي يا رب عشرون كليةً أستطيع بيعها!» ...

الراقصة والتراب

لم يدرِ سر الحزن الذي اجتاحه في تلك الليلة، ولم يجهد تفكيره في معرفة مصدره... فكثيرة هي أحزانه! حاول دون جدوى أن يغرق في أفكار صبيانية عسى أن يستدرج النوم أو يضحك فتزول الكآبة..

صنع فنجانًا من القهوة.. تركه دون أن يشربه.. أشعل سيجارة لم يستسغ طعمها.. استحال الدخان إلى مرارة.. تمدد على السرير بمواجهة التلفاز ربما وجد التسلية..

شاهد تسجيلًا قديمًا لراقصة ما زال اسمها شهيرًا بين الناس.. كان العرض بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاتها.. الراقصة تحاول جاهدةً أن يرضى عنها الجمهور، وأن تنتزع التصفيق منهم، وكان قد زحف بها العمر إلى سنوات ما قبل الاعتزال..

رأى البطن المتثني والصدر الرجراج والعجيزة التي تستدير في حركات الإغراء دودًا يتراقص.. رأى أكف المشجعين ديدانًا تصفق.. مصمص شفتيه وتمتم: «سبحان القهار.. دود يصفق لدود يرقص!!» ...

استحال المشهد إلى تراب يرقص وتراب يصفق، وتراب يحاول أن يرضى عنه تراب..

مرعوبًا تحسس أعضاء جسمه؛ وصرخ مرعوبًا: «هو القهار فوق عباده».. وانخرط في بكاء شديد كمن فُجِع في عزيز..

الشحاذ والملك

بعد طرده بسنوات طويلة حولوا قصره في أحد أعياد الثورة لمتحف عام؛ ليشاهد من شاء من العامة والبسطاء مظاهر البذخ المجنون التي كان يعيشها الملك الفاسد المخلوع كما وصفه أحد رجال الثورة في بيان افتتاح المتحف..

دهش الناس دهشةً بالغةً وهم يجوسون خلال الحجرات والممرات ومقتنيات الملك، ولعبت في رؤوس الكثيرين منهم أمنية الجلوس لحظات على الأسرة والكراسي الوثيرة، وملامسة المقتنيات المبهرة، وقد حالت دون تحققها لوحات تحذيرية تقول: (ممنوع الجلوس أو اللمس)..

كانت لوحة فنية لشحاذ مهترئ الثياب يستند على عصا غليظة؛ أشعث الهيئة يقهره الجوع معلقةً بعناية في قاعة كبيرة؛ تحفها أضواء تبرز ما فيها من جمال وروعة فنية أرادها الرسام..

ضحك أحدهم ساخرًا: «لو حاول هذا المسكين دخول القصر لقتله الحراس»..

قال أحد العارفين بأسعار اللوحات الفنية: «الصورة عالية القيمة باهظة الثمن»..

علق رجل بمرارة لا تليق بالمكان: «الصورة عالية القيمة؛ والأصل لا قيمة له ولا ثمن»!!

ثائر (فضائي)

في المطار سمع هامسًا يلومه: «الأحرار يقاومون حتى في سجونهم؛ وليس في فضائيات الخصوم»..

لمعت في عينيه الدولارات.. ابتسم هازئًا، ومضى..

مسعود صانع الحلوى

لم أدهش حين دهش الناس خلف نعشه عندما رفرفت عصافير ملونة كثيرة عليه متراصةً في تلاصق منتظم أشبه بجنود في طابور التمام.. ربما لتحمل روحه الطيبة في صعودها الأخير فوق سبعة أرقعة كما قالوا..

كنت بئر أسرار شيخي مسعود صانع حلوى المولد النبوي منذ ستين عامًا مذ كان شابًّا يافعًا وأنا في غيب ربي..

حين كشف غطاء مواجيده للمرة الأولى قال لي: «أشعر في كل عام أنني أزور حبيب قلبي وأنا أصنع حلوى العروسة والحصان؛ لأزف البهجة لقلوب الصغار».. وصمت قليلًا.. دمعت فيه عيناه، وقال: «بهجة حب النبي لعصافيرنا الخضراء»..

وفي المرة الأخيرة؛ وقبل أن تصعد روحه بيوم واحد رقصت تضاريس وجهه وخلايا جسمه ونسائم روحه وهو يقول لي: «رأيت حبيبي في المنام.. كان يفرد ذراعيه الشريفة ويدعوني باسمًا إليه»..

وما بين المرتين حكايات وحكايات.. وحكايات زار فيها النبي سبع مرات، وزاره النبي سبعًا..

إخلاص الشيخ

سمعت عنه كثيرًا.. عقدت العزم على رؤيته، ولكنها هموم الدنيا ومشاغلها.. قالوا: شيخ كبير.. قطب الوقت.. يرى بنور الله قلب من يجالسه، لكنه لا يبوح بشيء أو يهمس به، ولكن إذا طُلِب منه البوح تلاحقت كلماته كسهام قاتلة لا يبالي أي منقلب ينقلب سائله..

هدهدت قلبي الراجف وأنا أخطو نحو حضرته.. هكذا يسمونها.. وضعت فوق لساني رتاجًا من فولاذ كي لا يجرجرني إلى المهالك ويستهتر الناس بي..

همست نفسي: ولماذا مجالس التهلكة؟ وما يرغمك عليها؟ لكن شيء ما كان يدفعني دفعًا لرؤية الرجل..

بعد أن هدأ قلبي وسكن بين ضلوعي سمعت الشيخ يقول: الإخلاص آفة الآفات؛ من تعلق به أهلكه، ومن أفلت منه عاش قرير العين، ولكن من يستطيع؟

وكزتني نفسي: ما هذا الجنون؟ بل أنا المجنون حقًّا! أعطل عملي وأعتذر عن مواعيد الناس لأسمع هذا الكلام الخرف: «الإخلاص آفة!»

جئت لأستريح على وسائد كلماته ليضع قدمي على طريق الله؛ فإذا به ينهاني عن الإخلاص ويحذرني منه..

حملني الضيق على جناحيه، وعزمت على مغادرة الحضرة.. أومأت

بيدي إشارة من يستأذن في الانصراف كي لا أبدو بمظهر المسيء للأدب.. ابتسم الشيخ قائلًا: «وهل استأذنت في الدخول؟»

بللني الخجل.. شعرت بمأزق لم أتعوده.. حرت ماذا أفعل وأنا الموصوف بالفطنة والدهاء.. تدحرجت الكلمات المبحوحة تشق حلقي: «عفوًا سيدنا الشيخ»..

ازدادت ابتسامته وقال: «كنت تود رؤيتي.. فهل رأيتني؟ إذا طاب لك الخروج فاذهب، أما إذا جلست فلا بد من الطاعة العمياء.. يعني؛ يطيع داخلك قبل أن يطيع خارجك، ولا أجد لك على ذلك صبرًا»..

...

مضى زمن طويل.. ورغم فطنتي ونجاحات مشروعاتي ووصفهم لي بأن التراب يتحول في يدي إلى ذهب إلا أن ما حدث في يوم الحضرة يصيبني بالدهشة والحيرة، ولا أجد له تفسيرًا يمنحني ظل السكينة حتى تقادم العهد وبهتت الكلمات وزايلتني الدهشة..

ذات يوم صادفت رجلًا من أهل الحضرة.. كان أثيرًا عند الشيخ خارجًا لتوه من مسجد الإمام الحسين.. تذكرته بعد سويعة من البحث في الذاكرة، فاقتحمتني الحيرة القديمة دفعةً واحدةً: «الإخلاص آفة!».. ابتسم الرجل ولمعت عيناه ببريق عجيب وقال وهو يربت فوق كتفي بحنان لطيف: «قال مولانا الجنيد: الإخلاص أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء»..

ومضى دون استئذان تاركني لحيرة جديدة

سورة الأنعام

كان صوته الشجي يأخذ بلباب المستمعين إليه في سرادق العزاء، وكلما زاد تطريبًا سرت النشوة في أوصالهم، وانتزع كلمات الإعجاب من أفواههم: الله.. الله.. الله.. أعد يا مولانا..

رجل واحد انكفأ على ذاته تتجهم تضاريس وجهه.. لا يدخن السجائر مثلهم.. تتلاحق الدمعات فوق خديه مستعيذًا بالله من الشيطان الذي يرقص في المكان كما كان يتمتم..

عندما قرأ الشيخ ذو الصوت الشجي الذي يخلع نياط القلوب، وينتزع كلمات الإعجاب من أفواههم فتسري النشوة في أوصاله وأوصالهم، وكأنها بهجة غامرة لا سرادق للعزاء.. {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}..

ضحك الرجل الباكي ضحكةً ساخرةً جلبت أنظار الاستنكار عليه.. عبث في لحيته البيضاء، وقال: «سبحان الله.. كم من الأمم أمثالنا في البحر والبر والجو يلتهمها أبناء آدم في بطونهم يبتغون حياةً سعيدةً!!» ...

أوراق ملف الخدمة

بعدما أفاق من غيبوبة أدخلته غرفة الإنعاش أدهشته كثرة الأجهزة والخراطيم المتصلة بجسده.. اصطدم نظره بأوراق ملفه الطبي معلقًا في طرف السرير..

ابتسم في مرارة فقد ذكره بملف خدمته في المصلحة التي يعمل بها.. تمتم ساخرًا: «أوراق.. أوراق.. ما نحن إلا مجموعة أوراق.. الورقة الأولى شهادة الميلاد.. الورقة الأخيرة شهادة الوفاة.. وما بينهما سنوات عمرك: عمرك أنت يا أنا»..

وأغمض عينيه مستسلمًا للنوم الذي يغالبه..

الصورة الصغيرة

مصادفة وهو يرتب كتبه القديمة المهملة سقطت من دفتي أحدها صورته طفلًا.. كان ضاحكًا تفرش البراءة فرحتها في عينيه.. يعبث الهواء بخصلات شعره الناعم الطويل..

حملق في الصورة المفاجئة.. تحسس دون قصد ما تبقى في رأسه من شعيرات بيضاء.. وعبث لسانه بأسنانه الصناعية، ثم اقتحمه حزن مفاجئ أجلسه على كرسيه خلف المكتب العتيق.. أغمض عينيه لحظات.. ثم عاد إلى نفسه، وتمتم: «إيه.. غريبة هي الحياة!»

سير وسلوك

بعد نجاحي في الاختبار لشغل الوظيفة الشاغرة التي حاولت بشتى السبل والوساطات الفوز بها؛ طلبوا مني ضمن ما طلبوا في ملف مسوغات التعيين شهادة حسن سير وسلوك..

حرت طويلًا وتساءلت: وكيف المخرج من هذا المأزق الغريب؟ ومن يشهد لي بحسن السير والسلوك، وقد حصلت على الوظيفة بطريق غير مشروع؟ لابد لي من شهود عدول يشتهروا بالصلاح والنزاهة وساعتها سيقررون عدم صلاحيتي..

جال بصري على عدد مهول من الموظفين بالمصلحة.. تساءلت: ومن أين حصل كل هؤلاء على تلك الشهادة؟

ضحك الرجل الكبير الذي مكنني من الفوز بالوظيفة مقهقهًا حتى دمعت عيناه وقال وهو يدير المسبحة في يده: «الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: «تهادوا تحابوا».. يعنى المسألة في غاية البساطة! هدية جميلة لاثنين من الموظفين ورئيس المصلحة ليشهدوا لك بحسن السير والسلوك!!»..

آخر القيود

رغم حزنه الفادح لموت آخر أصدقائه؛ اجتمع في قلبه إلى جوار حزنه فرح مكتوم.. يعرف جيدًا سر هذا التناقض الغريب..

اليوم مات آخر إنسان يعرف عنه نقيصةً مخزيةً..

ودع المعزين وأهل آخر الأصدقاء مؤكدًا ما طلبوه منه: دوام الزيارة، فهو حبيب الراحل العزيز..

تمدد فوق سريره ليستريح من عناء يوم كئيب.. ابتسم حزينًا: «الآن أنا حر.. أذاب الموت آخر قيودي»..

ثم استسلم لنوم عميق..

لم يستيقظ كعادته في الصباح الباكر، وإنما استيقظ الجيران على صراخ أولاده..

مات!

العودة

العودة إلى قريته مسقط رأسه.. كان قراره السعيد بعد أربعين عامًا قضاها في العاصمة صاعدًا في درجات الترقي الوظيفي حتى وصل إلى منصب رفيع توج به رحلته الطويلة.. كان فيها مثالًا للالتزام والحزم وطهارة اليد كما وصفه البعض.. بل التزمت والغرور والغطرسة كما رآه غيرهم، وربما غطاءً لمخالفات واختلاسات وفضائح لم تُكْشَف كما أكد آخرون..

لم تفلح معه توسلات زوجته بنت المدينة وأولاده الذين وُلِدوا بها وكبروا وتعلموا وعملوا وتزوجوا..

عاش عدة أيام فرحًا طفوليًّا ودفئًا رائعًا؛ ما كان يعوزه فيه إلا زوجته لتعلم كم كان على صواب في قرار العودة إلى الريف الجميل، ودفء القلوب الطيبة..

...

خبت حرارة الاحتفاء ولم يفلح معه هدوء الجلباب الأبيض والمسبحة، ومل الجلوس إلى جوار مسجد القرية مع رفاق الشيخوخة والأحاديث المكرورة.. ضاق ذرعًا بكثرة ما طلبوا من خطابات التوصية للمسؤولين.. كادت تقتله الغلظة غير المتعمدة من البعض حين يلقي في وجهه دون مبالاة كلمات جافة بأن توصيته أمست عديمة الفائدة، فقد خرجت

هي الأخرى إلى المعاش؛ ثم يتبع ذلك بضحكة فجة، فيعلق ساخرًا بغية الخروج من مأزق الإهانة: «كان ذلك في أيام العز يرحمها الله»..

عصفت برأسه كلمات زوجته: «القرية لقضاء الإجازة وليست للحياة».. فقرر العودة، وارتاح لخاطر وجد فيه العزاء حين همست له نفسه بالتأكيد: «سيقولون بأنني فضلت الضوضاء والتلوث والزحام معهم في المدينة على الجنة مع غيرهم حتى لو كانوا أهلي وقريتي»..

مجذوب

تعود الناس رؤيته في ميدان الحسين أشعث أغبر مرقع الثياب يتكلم بكلام غريب لا يتوقفون كثيرًا عنده: شيخ مجذوب..

كان رجل مهيب الهيئة يراقب حاشيته وهم يوزعون الطعام على الفقراء؛ يدير مسبحةً في يده، ويتكلم بثقة المحسنين من أهل الثراء الطارئ؛ وكأنه عليم ببواطن الأمور..

صرخ المجذوب وكأنه يكلم الهواء: «لا تدعي ما لا يليق بك، وتأدب فأنت في حضرة الأدب»..

نظر ذو المسبحة والثراء بغضب إلى المجذوب: «بما يهذي هذا المجنون؟» ...

حاول أحد رجاله طرد الشيخ بعيدًا..

نهاه ذو الثراء الطارئ وقد ارتدى ثوب الرحمة ليخفي رعبًا هجم عليه من إيذاء الشيخ المجذوب له إذا فعل ذلك، وهتف: «أجننت؟ تضربه بجوار الحسين!» ...

صرخ المجذوب: «تأدب مع خالقك.. ترهب كالسباع والضباع»..

وجعل يرددها وهو يختفي بين الناس..

الميراث

بعد صلاة الفجر في المسجد الكبير التي يحرص فيها على اصطحاب ولده الوحيد كي تناله بركة الطاعة؛ يذهب إلى عربة الشربات الخشبية مستعينًا بالله على الشقاء في ملأ المستطيلات الزجاجية بالسوائل الحمراء والصفراء والبيضاء التي أعدها في الليل وضبط حلاوتها وطعمها: الفراولة.. المانجو.. السوبيا.. وذلك بعد غسل العربة جيدًا بالماء والصابون.. وكان يتمهل كعادته عند الكتابة الحمراء التي زينها بها: (الصبر مفتاح الفرج)..

كان يبتسم ابتسامة الرضا وهو ينظر إلى رسم المفتاح إلى جوار الكلمات، وقد حرص أن يكون رسمه باللون الأخضر.. يرى المفتاح مفتاحًا لفرج النجاح الدراسي الرائع لولده الوحيد الذي رزقه الله به إلى جوار ثلاث بنات.. رجل العائلة القادم وشرفها.. يحلم له بوظيفة كبيرة تغسل عن تجاعيد وجهه المرهقة تعب الفقر والسنين..

في اليوم الذي توج فيه ولده الوحيد دراسته بحصوله على المركز الأول — أو كما يقول أهل الحارة: الشهادة الكبيرة — وزع كل ما في المستطيلات الزجاجية من شربات فرحًا وطربًا هامسًا في نفسه؛ وكأنه قد تخلص منه إلى الأبد: «ملعون الفقر وسنينه!!»..

ظل يرقص ويضحك، ويرقص الناس حوله حتى سقط مغشيًّا عليه.. ظل طريح الفراش عدة أيام لا تفارقه الابتسامة رغم قسوة الألم الذي

فسرته الزوجة الحزينة أنها عين حسود شريرة.. حتى فارق الحياة..

بعد أن أخفقت كل الجهود والوعود والوساطات التي تناسب رجلًا فقيرًا لم يجد من حصل على الشهادة الكبيرة بتفوق كبير حلًّا لرعاية أسرته سوى تسلم ميراث والده: عربة الشربات الخشبية المنقوش عليها كلمة الصبر ورسم المفتاح..

شعر تجاه الصبر والمفتاح بعداء شديد.. بصق عليهما.. ركلهما بقدمه، وقرر إعادة طلاء العربة بلون شبابي ورسومات راقصة تليق بالجيل الجديد..

بكاء

رغم المرارة التي تسحق تضاريس وجهه ابتسم ساخرًا من كلمات المعزين في وفاة ولده: «ربنا يجعلها آخر الأحزان»..

تمتم مستنكرًا: «وهل انتهى أمر الدنيا، وستقوم القيامة حتى تنتهي الأحزان!»

جاء صوت قارئ القرآن من الراديو المطل من النافذة: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}.. غلبه الشجن، فأخذته سطوة بكاء دهش لها الناس.. وهو يتمتم: «حقًّا كبد.. حقًّا كبد..»

قصة قصيرة

بعد أن استسلمت لخدر النوم؛ فجأةً زاحمت رأسي فكرة لقصة أدبية رأيتها أروع ما كتبت.. هرعت إلى ضوء الغرفة.. جعلت أنقر بالقلم فوق الأوراق يائسًا.. هربت الفكرة.. ربما بددها الضوء المباغت..

عدت إلى فراشي يحتويني الحزن لانفلات الفكرة بهذه السرعة والأمل يحدوني أن تعود..

سمعت هامسًا في أذني يعاتبني: «علام الحزن؟ هون عليك.. فماذا ستكتب يا مسكين؟ ولمن؟ كلكم موتى.. ميت يكتب لميت»..

تملكني رعب غريب.. هرعت إلى ضوء الغرفة متعجلًا أنفاس الصباح..

معشوقة أبدية

رأيتها أول ما رأيتها رائعة الملامح.. يخلو وجهها الوردي من المساحيق والتزاويق، ويملأ عينيها البهاء والصفاء.. تعلق القلب بها وهام وأنفق العمر في إرضاء تقلباتها..

كبرت معها، أو كبرت معي! لا أدري.. تسلل الشعر الأبيض إلى رأسي حتى اشتعلت شيبًا.. غادرتني النضارة، وصار القلب متعبًا بعشقها حتى أثقلني حمله.. حاولت مرارًا أن أفرغه منها، ولكنه جنون العشق.. أمسيت أستعذب العذاب في هواها إلى أن هجرتني دون اكتراث..

ذات يوم رأيتها وقد امتلأ وجهها بالتجاعيد والمساحيق.. ويا للعجب! يتيه بعشقها من تملأ النضارة وجهه، ويقسم أغلظ الأيمان أنها شابة خضرة نضرة وإن كان يشكو كثرة تقلباتها..

أخرجني من دهشتي هاتف يقول: «سيراها بعد أن يستعذب العذاب لأجل عيونها الفاتنة، وقد امتلأ وجهها بالتجاعيد والمساحيق.. قد جُنَّ بها عاشق جديد؛ يراها صغيرةً رائعة الطفولة»..

عزلة لم تدم

بكلمات حارقة تخرج من حبة القلب مبللة بالدمعات رجوت الله أن يقبل توبتي، وأن يقتل الشيطان داخلي.. أطلقت لحيتي.. اعتزلت البشر، فهم أصل كل شر.. عشت أيامًا تغمرني سعادة بالغة كطائر في بستان عامر..

عندما يأتي المساء أفتح نوافذ قلبي للضياء، وفي الصباح أغلق الأبواب والنوافذ، وتهتف نفسي: «لا تشعر بك أحدًا؛ فقد يصيبك مكروه»، فأغلق بابي حتى يأتي الليل..

جعلت تتراءى لي صور ذنوبي، فأغمض عيني بقوة أحاول طردها خارج أسوار ذاكرتي، إلا أن وطأتها كانت تشتد بعناد غريب، وكنت أجد لذلك لذةً أكرهها.. أستسلم لها بعض الوقت، ثم ألاحقها بتذكر حسناتي وما فعلته من أعمال الخير؛ التي يتحدثون عنها، وكنت أشعر براحة عجيبة، وأبتسم داخلي راضيًا وكلمات المادحين تتدحرج على عتبات مسامعي وأنا وديع كطفل بريء..

ضاق صدري بوحدتي وأنا محاصر بين توبتي وذنوبي، ثم وجدي الذي أكرهه.. صرخت بكل ما في من عافية: «أي رجل أنت؟» ...

هزني هاتف عجيب يقول: «أسقط أوراق خريفك تنبت في أغصان كأزهار الربيع»..

انتابتني رعدة شديدة لمفاجأة الهاتف: «من يكون؟ وماذا يريد أن أفعل؟ وعن أي أشجار؟ وأي خريف؟ وأي ربيع يتحدث؟» ...

وجدتني كالمسحور أفتح الباب وأندفع إلى الشارع..

أيام المطر

انتهت هوجة الانتخابات وما زالت صور المرشحين معلقةً فوق الجدران؛ تبتسم وتعدد الوعود الوردية للزمن القادم، وتؤكد للناخبين بأن أصواتهم أمانة في أعناقهم، وتوصيهم بألا يمنحوها إلا لمن يستحقها، ويقسم كل صاحب صورة أنه خير من يمثلهم..

جاء فصل المطر وما زالت الصور معلقةً فوق الحيطان.. قال قائل من المحشورين في السيارة التي كانت تقلنا في المدينة: «يقوم عمال النظافة بإزالتهم عقب انتهاء العملية الانتخابية، ولكننا ... »

ثم صمت بما يشي بالإهمال واللامبالاة تجاه سكان القرى رغم تحصيل رسوم إزالة الملصقات من جميع المرشحين..

اشتدت رياح الشتاء؛ فمزقت وجوه المرشحين وطارت بعض الأنوف وبعض العيون والأسنان المبتسمة وبعض الوعود..

هطل المطر بغزارة فسالت ألوان الوجوه المعلقة فوق الجدران، واختلطت الكلمات فكان مشهدًا ساخرًا: أنف وأذن يلتقيان فوق صدر مرشح منافس، وبياض أسنان يخالطها سواد شعر حليف له في القائمة، وعيون اتسعت بشكل مخيف فوق صلعة آخر.. قفزت إلى ذاكرتي سريالية لوحات (سلفادور دالي) بينما يقول أحدهم: «المطر كله خير يحسن الفول والقمح، وسبحان الله يقضي تمامًا على الدودة السوداء التي تلتهم البرسيم والبنجر، بينما تفشل معها المبيدات».. فقال غيره ساخرًا: «ويخلصنا من أصحاب الوعود الكاذبة»..

الرجل والكلب

كان الممثل المعروف يقلد صوت كلب في أحد أدواره المسرحية، وكلما زاد الضحك أتقن أصوات الكلاب حتى تصبب عرقًا وإرهاقًا، ولكن سعادةً غامرةً كانت تطل من عينيه..

همس مشاهد اغرورقت عيناه بالدمعات من شدة الضحك: «أتراه يغضب لو وصفه أحدنا بالكلب؟» ...

وسط زحام شديد حول الممثل لمصافحته والإشادة بدوره اقترب منه وقال ضاحكًا: «كنت كلبًا رائعًا يا أستاذ؟» ...

ضحك الممثل ضحكةً فاترةً قائلًا: «أشكرك يا مؤدب» ...

مسخرة

كاد ينفجر ضحكًا والموسيقى الرسمية تعلن خبر قدومه..
قبل ساعة واحدة كان يتصبب عرقًا من قسوة الإمساك..

حكمة أخيرة

قبيل تنفيذ إعدامه قال له أحدهم: «مشهود لك بالحكمة وحسن السيرة؛ ما الذي فعلته بنفسك؟» ...

رفع أصبعه نحو السماء وقال: «لو كان القلم بيدي ما كتبت على نفسي الشقاء؟» ...

شاعر أيروتيكي

يعشق من القهوة رائحتها لا شربها، فهي تضر معدته كما يقول، ويعشق في المرأة صدرها دون بقية الجسد؛ فليس غيره ما يبهج في جسم أنثى كما قالوا..

ضحكت شاعرة ساخرةً لم تسلم من سوء حروفه: «أعرفه جدًّا.. يعرف في الأنثى نهديها، فعند محطته تتعطل كل قطاراته»..

كانت الشهوة تتجلى في اسمه وكان يجيد رفث الكلام، وينعت كل معارفه بأوصاف قبيحة في ظهورهم..

..

لعن الله العجز.. يجعل بعض أهله فلاسفة للقبح..

عدسات لاصقة

بعد أن أجهض غيابها غير المبرر حلم الوردة الحمراء في عيد الحب فجأةً وجدتها أمامي تبتسم..

كان زملاء العمل قد انصرفوا معظمهم تقريبًا، وكنت على غير عادتي كارهًا العودة إلى البيت.. كارهًا أن اذهب إلى أي مكان.. فقد كان غيابها قاسيًا وحضور غيابها طاغيًا..

أعترف بأنني كلما لعنت ضعفي أمام مراوغتها وعزمت على اتخاذ موقف يضع حدًّا لعذاباتي خذلني قلبي، وعند أول كلمة منها أراني ابتسم من جديد مثل طفل ساذج..

بغير قصد ولا ترتيب؛ كان مجرد اقتراح وافقتني في أن نلامس ماء النيل في نزهة ليلية..

أعترف بأن بساطة الموافقة وسرعتها أدخلتني في حيرة لا حدود لها، فقد كنت لا أدرى ماذا أفعل تجاه تلك المحبوبة العنيدة في أول لقاءاتنا غير الرسمية أمام صمت كلماتها وبوح عينيها..

ساومني أحد أصحاب المراكب الصغيرة في قضاء ساعة من الراحة التامة أنا ومن معي فقط على صفحة النيل، وابتسم فاتحًا فمه فظهر سوقًا للنخاسة في لمعة أسنانه الذهبية..

وسط عشرات المحبين وغيرهم أقلنا مركب كبير.. جلسنا نتبادل

الهمس المباح، ونتأمل وجه النيل.. تقتحم أسماعنا الأغنيات التافهة المبهجة الراقصة التي يحرص عليها أصحاب المراكب..

ثلاث فتيات في مقتبل العمر بعد أن هزتهن البهجة المزيفة جعلن يتراقصن ويضحكن بشدة تلفت الأنظار إليهن.. تفوح منهن رائحة المساحيق الرخيصة الثمن.. انصرفن في نهاية الرحلة تتأبط كل واحدة منهن ذراع شاب.. كعادتها كلما حدثتها عن أشواقي إليها ابتسمت في دلال وقالت: «شكرًا»..

سألتني عن أمنياتي في العام الجديد، فقلت: «أنت»..

وجاء دوري في السؤال؛ فراوغتني واختلقت حكايات عن العمل والزملاء..

بعد صمت لم يدم طويلًا قلت: «كم يبدو الليل جميلًا في عينيك!!» ضحكت ثم قالت بدلالها المعهود: «شكرًا.. ولكنها (لانسيز) يا عزيزي عدسات لاصقة!!»..

كغريق لم يدركه أحد وقع قلبي تحت أقدامي، وعزمت من جديد على اتخاذ موقف يضع حدًّا لعذاباتي..

سؤال قديم

في مكتبة بطريق الجامعة كان يستوقفني كتاب عن فلسفة الحياة.. أتأمل جمال الغلاف واسم الكاتب الكبير، وأتمنى لو عمرت به مكتبتي الصغيرة، ولكن ضيق ذات اليد كان يحول دون ذلك..

ومرت السنوات وشاءت الأقدار أن أعمل في المؤسسة الصحفية الكبيرة التي يعمل بها الكاتب الكبير، وشاءت الأقدار مرةً أخرى أن أكون أحد الذين دفعت بهم المؤسسة ليدربهم الكاتب الكبير، ويختار من يصلح منهم للعمل..

بعد عدة أسابيع أهداني نسخةً من الكتاب، وعليها كلمات رقيقة بخط يده تتنبأ لي بمستقبل كبير ومتميز..

مرت شهور طويلة ولم أجد في نفسي رغبةً لقراءة الكتاب أو حتى تواجده في مكتبتي، فقد كنت ومن اختارهم الكاتب في ورشة عمل ننتج الأبحاث والترجمات ليقوم بتهذيبها وإصدارها في كتب جديدة باسمه الكبير..

وكان يؤرقني سؤال قديم: «ما الذي يفسد قصص الحب الكبيرة بعد الزواج؟»

أسئلة مريرة

بعد سماع خطبة الجمعة دمعت عيناه وقال مخاطبًا كل من يصل إليه صوته: التجار على المنابر.. واللصوص على الخزائن.. الأفاقون على الشاشات.. القاتل في ثوب الثائر.. المقتول؛ يصيحون باسمه: شهيد! فمن أين يأتي النصر يا بلادي؟

صرخ ذو الشارب الكثيف: أسكتوا هذا الأحمق؛ فهذا خطر على الأمن القومي للبلاد!

الظل المقتول

بعد غربة طويلة لم تنسه لذة نوم القيلولة في ظل أشجار الحقل؛ حيث الهواء الرطب يداعب تضاريس وجهه وخصلات شعره، ويكشف الجلباب عن ساقيه رغم مكيفات الهواء والأماكن المترفة التي يعيش فيها..

بعد عشرين عامًا عاد إلى قريته مشوقًا لقيلولة الحقل.. وجد الإسفلت الأسود والكباري الخرسانية وضجيج السيارات وقد ابتلعوا الحقل وقتلوا الأشجار.. دمعت عيناه كمن فقد عزيزًا لديه، وعاد إلى غربته..

ما تيسر من سيرة العشق

هجرت صاحبتي التي تأويني، وما عدت أجد لديها أنسًا ولا لذةً.. حتى أطفالي ما عاد يهزني الشوق إليهم.. واستعذبت الصمت والجوع والسهر والبكاء، وهمسات يقولها الليل لي مليئةً بالدهشة واللذة..

طال بي الحال إلى أن بدا وظهر، فعجب الناس وقالوا: «مسكين أصابته لوثة.. هكذا قدر الطيبين في دنيانا».. ونصحوا بألا يغضبني أحد، وأن يذهبوا بي إلى شيوخ السحر والأثر.. وتباروا في ذكر أسماءهم وبلادهم وقوة ما يفعلون في مثل حالتي..

وقال البعض: «بل؛ إلى أطباء النفس يا سادة، ودعكم من دجل المشعوذين».. وكنت أبتسم، وكأنهم يتحدثون عن رجل سواي.. وقد دثرني حب لطيف لكائنات الليل، وعمرت نفسي بكلمات كان يوشوش لي بها من لا أراه.. يهتف بي في قلب الظلمات: «اتبعني يا ابن عبد اللطيف، ولا تسل؛ تفز بالنور والنار والعشق الأسني، وينبت لك من الرضا أجنحة تطير بك مع الملائكة»؛ فأتبعه كالمسحور على سكك الليل تغمرني كلماته الحبلى بنشوة رائعة الأنغام، ويحملني طوفان اللذة يطيرني في مهب الشوق، ويسكبني كالريحان في بحور اللؤلؤ المكنون وجذوة اللهب، فأراني أرقص في نار المحبة جذلانًا سكرانًا.. وعند الفجر يعيدني إلى طينتي الأولى.. إلى بيتي؛ حيث زوجتي وأولادي.. وفي كل ذلك لا أملك إلا الطاعة..

وطال بي الحال حتى ألفه الناس، ولكن الدهشة أذهبت عقلي حين رأيت النور يمشي في عروقي، وأقسم أني رأيت الكون في كفه مزمارًا يعزف أجمل الألحان، وأقسم أني قد رأيت الطير يرقص نشوانًا، ورأيت الرمل في قاع البحور يسبح خالق الأكوان.. صرخت بكل عافيتي: «لا أستطيع».. وتملكتني صورة البكاء..

جف عودي ونحل جسمي، وبدت عظام هيكلي، وما عدت أقوى إلا على السير الطويل ليلًا والجوع والسهر والبكاء.. ما عدت أقوى على الكلام أو السمع لغير آمري، وأصبح كلام الناس ثقيلًا في مسمعي، وما كنت أحسب قبل ذلك أن له تلك الكثافة المرهقة..

حصنني المشايخ الذين استسلمت لهم بلا إرادة مني بمئات الرقى والأحجبة، وحار أطباء البدن في أوجاعي اللذيذة، وقال أطباء النفس: «هلوسات وضلالات سمعية وبصرية».. وفي كل الأحوال يمرح السؤال في داخلي: «عمن يتحدثون؟»..

بعدما علم شيخي الأكبر بحالي غضب أيما غضب، وقال وكأنه يستنكر: «هذا قلب غلام صغير لا يحتمل.. أقسمت عليك بعزتك واسمك الأعظم أن تذهب عنه فتنتك».. وسجد باكيًا، ثم ربت فوق كتفي مشفقًا، واستجمع قوته في قبضة يده وضربني في صدري ضربةً قويةً لم أجد لها ألمًا.. قالوا فيما بعد بأنني سقطت على إثرها صعقًا.. فتحت عيني على طعام كثير.. ثم أمرني الشيخ بالأكل بعد أن مسح على بطني، وتمتم

بكلمات ذكر فيها اسم الله كثيرًا.. فجعل الطعام ينتهي ولا أشبع، والشيخ يبتسم باكيًا حتى تعجب من حولي عجبًا عظيمًا.. وفجأةً؛ مد الشيخ يده ومسح على بطني صارخًا: «كفى.. كفى.. ستأكلني يا مجنون!».. ثم ربت على كتفي بحنان فردوسي أعاد عقلي القديم، وابتسم قائلًا: «اذهب إلي زوجتك وأولادك، ولا أراك إلا عاقلًا، فالجنون لا يليق إلا بالرجال وأنت لا تزال صغيرًا»..

لم يبق من حالي الذي ذهب عني إلا ميزة الصوت الذي كان يناديني.. إنه صوت شيخي وكلماته التي كان يتغنى بها في حلق الذكر.. إنه هو حقًّا هو.. ولكن كيف ينهاني عما يتكلم به؟ هل حقًّا ما زلت صغيرًا كما قال في طريق الحب..

عزمت على لزوم بيتي ورعاية زوجي وأولادي كما أمرني حتى يرسل في طلبي..

التوقيت الشتوي

الشتاء أجمل فصول العام.. همست بها شفتا حبيبتي بينما كانت شفتاي تنطقها.. هكذا نحن بأفكار وكلمات عديدة.. بعدها كانت تتيه بسحر عيونها طربًا، ثم تضرب راحتي كطفلة مرحة سرقت من دفء ليلات الشتاء دلالها، ثم تقول: «لا؛ تلك كلماتي أنا، وأنت تسرقها».. ثم تضمنا زوارق الأحلام والفتون..

كان الشتاء طفلنا المحبوب وعمرنا المخبوء تحت جلودنا؛ عندما يأتي تبدأ الحياة.. يضمنا بدفئه العجيب، فنضمه ونذوب في حنوه الوارف..

عندما يأتي الشتاء تبدأ رحلتنا الرائعة: رحلة المشتاق إلى عوالم الضياء وهالة البهاء وآية النشوى.. عندما يأتي الشتاء تبدأ أعيادنا الجميلة الأثيرة.. تورق شجيرات عشقنا المجنون.. وتنتشى أزاهير ورودنا؛ فيعيد أول ليلة شتوية.. نستعيد اللحظة الأولى.. نستعيد البسمة الأولى، وتستعيد أناملنا العناق.. تستعيد تراقصها، ثم تعيد عقارب الساعة إلى الوراء ساعةً هديةً رائعةً يقدمها إلى قلبينا الشتاء.. في عيد أول غيمة تهدينا قطرات عطرها نبل أيدينا ووجهينا كطفلين مسرورين.. نذكر كم من الأعوام مرت.. كم أمطرت حبات لؤلؤها السماء فاخضرت أغصاننا وأورقت..

وينبت السؤال فجأةً فوق الشفاه: «كبرت زهور حديقة عشقنا النبيل

شتاءها الجديد».. ثم تضرب راحتينا، وتهمس في دلال: «يا سارق الكلمات من قلبي»..

عندما يأتي الشتاء تبدأ أعيادنا الجميلة.. تبدأ الحياة..

ميلاد حبيبتي في بداية الشتاء، وكانت بجنونها الطفولي إذا سُئِلت تقول: «صدقوني أنا برج الشتاء، واسألوا غيماته التي شهدت، واسألوا الدفء وأوراق الورود سيعلنون عني مثلما أقول.. أنا كائن شتوي»..

في كل عام نوقد الشموع.. نمطرها بعطر زهورنا، ونعيد عقارب الساعة، ثم نُولَد من جديد؛ تباركنا عصافير الشتاء..

في آخر ليلة شتوية تلتقي دموعنا بدموعه.. أنفاسنا الحرى بأنفاسه.. نستحلف الشتاء بنار همسة موحدة ألا يغيب، وألا يطول الانتظار لدفئه الرحيب.. ونجدد العهد معه.. أنت الملاذ لروحنا من بهرج الربيع ورعونة الصيف الساذجة..

العام.. ويا لقسوة الغياب! يأتي الشتاء وينقضي بلا حبيب.. بلا يديه فتعيد عقارب الساعة، وبلا غيمة فتهدينا لؤلؤها، وبلا مرح طفولي أثير..

الشتاء أجمل فصول العام.. يأتي وينقضي بلا حبيب..

مفارقة

فى اليوم الذى أمرت فيه النيابة العامة بدفن جثتها الغارقة، كان «الفيس بوك» يذكِّر أصدقائها الإفتراضين بعيد ميلادها العشرين .

ملأت صفحتها باقات الورود ،والشموع وتورتة الميلاد بصورتها الضاحكة، وأمنيات أن تعيش ألف عام!

***

شهيد

بينما دمه العنبرى يلون الأرض كحقل زهور حمراء، تراءت له صور الأطفال اليتامى والأمهات الثكالى والآباء المكلومين وراية البلاد .

بالكاد رفع اصبعه المخضب بدمه نحو السماء مثل رمح عربى قديم. وقال بآخر انفاسه: عاش الوطن.

من حضروا المشهد تعجبوا لطيور خضراء اللون، أشبه بالعصافير، رفرفت فوق الجسد قليلاً ثم جعلت تصعد إلى السماء مجتمعة حتى غابت عن العيون.

***

السيارة الزرقاء

بالكاد تفادى بشكل قدري الاصطدام بسيارة الشرطة الزرقاء كبيرة الحجم- الزنزانة المتحركة بلغة السجناء- .

ابتسم بوجع روحى لا شاطىء لبحر مرارته، هجمت على قلبه الواهن ذكريات الإعتقالات وسنوات السجن، عشقاً لحماية الوطن من الفاسدين.

وكذا التعذيب الوحشى الذى هدَّم بدنه، المصحوب بسوء المعاملة من شتم وسب بأغلظ الألفاظ ودعوات أن يأخذه الله لحماية الوطن من أمثاله المتمردين- حسب الإتهامات-.

إتكأ بشدة على عصاه خشية السقوط، تابع من خلف نظارته السميكة السيارة الزرقاء القديمة، دون أن يرد على السائق الشاب الذى أمطره بالسباب القبيح وأنهم شعب من المساطيل.

همس فى نفسه: ربما كانت هي!

***

فى الزنزانة

رسم نافذة كبيرة، وشمس طالعة، وطريق طويل، ونهر وأشجار، ثم جلس فى ظل الحائط ينتظرمجىء أمنيته الوحيدة التى طال انتظارها... أن تلمس قدميه اسفلت الشوارع وسط زحام البشر.

***

عشق مجنون

يسعد كثيراً حين يناديه اترابه: «القط الكرتونى»، فقد كان مغرمًا بحركاته وقفزاته الرشيقة، وتمنى أن يكون مثله.

يفرح، يهلل، يصفق بحرارة شديدة عندما ينهض القط بقوة بعد أن تدوسه عجلات السيارات العملاقة، حين يدخل الحجرات من الفراغ الضيق اسفل الباب، يقفز من سطح الأرض إلى أعلى شجرة فى لمح البصر، وحين يصطدم بالجدران يتكوم وسريعاً ينهض.

جاء موعد البرنامج، ومازالت الكهرباء غائبة عن البيوت، رغبة فى الهروب من حالة الضجر والضيق اغلق باب الحجرة حتى لا يراه والديه وإخوته، جعل يقلد «القط الكرتونى» ، صعد فوق دولاب الملابس، لامس السقف بأصابعه الصغيرة، جلجلت ضحكته الواثقة، لمعت عيناه، ثم قفز بقوة على أرضية الغرفة وصرخ صرخة فزع لها كل من فى البيت.

ظلت ساقه الرقيقة التى كسرت فى الجبيرة عدة أشهر، وأمام اِصراره وبكاءه المتواصل نقلوا جهاز التلفاز اِلى غرفته حتى يتمكن من رؤية برنامج «القط الكرتونى»، يقفز تدوسه عجلات السيارات وسريعاً ينهض.

***

وردة حمراء منكسة

فى أول ليلة من سبتمر فى كل عام، تُحضِر»تورتة كبيرة وشهية» تماماً مثل التى كان يحبها، تستبدل الشموع المضيئة بشمعة سوداء مطفأة ووردة حمراء منكسة.

وحدها تحتفل بوداع حبيبها وعشقها المجنون فى ذكرى مولده. مع شروق شمس تلك الليلة الكئيبة تحمل الوردة الحمراء المنكسة والشمعة السوداء المطفأة والتورتة الكبيرة الشهية، وتذهب لزيارته .

كعادتها كل عام تعتب عليه أن تركها فى مهب زيف الحياة، وجفافها الذى زاده الرحيل جفافاً، تتكلم معه طويلاً تحكى أدق تفاصيل حياتها طوال عام مضى, تغضب منه لعدم زيارتها فى منامها كل ليلة، ثم يلين صوتها وتستعطفه ألا يغضب ويهجر رؤيتها.

تتساقط الدمعات على خديها بلا توقف، كحبات مسبحة بطول المسافة بين الأرض والسماء، يتحشرج صوتها، تغيم الرؤية فتلوذ باحتضان المقبرة، ومع غروب الشمس تستأذنه وتوصيه ألا يطول غيابه ليلاً، ثم تجر قدميها عائدة إلى بيتها.

***

عرافة

تقرأ الفنجان والكف والطالع وتتنبأ للناس بقادم أيامهم وما يحمله المستقبل من سعادة، يصدق الكثيرون كلماتها ويستعجلون فيما بين أنفسهم تحقيقها.

فى ليل وحدتها يأكلها القلق عما يخبئ لها الغد!

***

مجنون!

رأيته مرتين، واحدة كان يشغل منصب مديراً عاماً فى شركة حكومية كبيرة، أعلنت عن وظائف شاغرة ورفض التوسط لولده الوحيد رغم تفوقه فى التخصص المطلوب.

ومرة، أشعث أغبر حافى القدمين، يزعق فى ميدان التحرير: صابون لونه أحمر وآخر لونه أخضر وغيره لونه أصفر. وكلهم يخرج رغوة بيضاء!

ياأيها النااااااااس: كلٌ يُخْرِج لونه كى تستقيم الحياة ويحفظ الله الوطن.

***

الفرح الحزين

عضَّت أناملها حزناً رغم فرحها الشديد بالأموال التى تسد ديونها وجوع عيالها.

تمتمت: لو كان لى يارب عشرون كُليةً استطيع بيعها.

***

لذة الألم القديم

أين أنت يا ملك الموت؟

كان يزعق بها عندما يستبد به الضجر وعدم الإحتمال ويصرخ:

- ضع نهاية لعذاباتى أرجوك.

هذا رغم حبه القديم للدنيا ولذة العيش، بل كان يكره مجرد ذكر الموت أو المشاركة فى تشييع الحنائر، وكثراً مايقول:

- مالنا والموت، دعونا نشبع من الدنيا أولاً.

لم يكتف غول المرض بإتلاف كبده وتضخمه، فلا يمكنه النوم على جانبه الأيمن إلا قليلاً جداً، ثم يضطره الوجع أن ينقلب إلى جانبه الأيسر آملاً أن تكون أن تكون أقراص المنوم قد أخذت وعيه.

ولكن التهابات المعدة الحادة وارتجاع المرىء، لا ساحل لبحر مرارته، والقلب يعالج الخفقان السريع، لحظات وينقلب على وجهه ربما وجد بعض الراحة فتهجم عليه الأوجاع فينقلب على ظهره الذى ملأته البثور والثآليل مثل شوك مدبب.

فكر كثيراً فى انهاء حياته كى يستريح ويستريح من حوله من القائمين على رعايته وعلاجه، إن خوف المعصية كان يلجم جماح الفكرة، وتفيض عيناه بالدموع والأحزان، ويتضرع إلى الله أن يشفى له جانباً من جسمه ينام عليه، فقد ضجر من النوم جالساً على كرسى.

أنقذته الأيدى المسعفة وهو فاقداً للوعى، بعد أن شوت جلده النيران التى اشتعلت بالمنزل ليلاً.

فوق سرير المستشفى المخصص لتلك الحالات، علقوه من قدميه ووسطه وكتفيه، أشبه ما يكون بالدجاج المشوى حتى يتمكنوا من علاجه، لم يبق من شكله القديم سوى عينيه بعد أن غادرتها الحواجب والرموش .

بعد عدة أيام جعل يدعو الله أن تعود به الحال إلى وحشية الوجع القديم، فملك الموت لايستجيب، والنوم على كرسى منكفاً الرأس حتى لا تلامسه ثآليل ظهره رفاهية كبيرة بالمقارنة لما أصبح عليه، وكلما راودته فكرة الإنتحار وإنهاء اوجاعه ابتسم ساخراً وقال:

- حتى هذه ما عدت أستطيع .

***

حادثة مكررة

إلى روح الأديب والفنان السودانى محمد بهنس ،
الفقير الذى قتله برد القاهرة

غطوا جثته التى جمدها قسوة البرد فى مرقده على الرصيف بجرائد إعلانات الشقق الفاخرة.

مصمصوا شفاههم ، وقال أحدهم:

- ما أكثر المساكين فى زماننا، اطلبوا سيارة الإسعاف ياسادة.

تسربوا رجل بعد رجل، ما بقى سوى الميت وحيداً، خشية سؤال الشرطة لهم وربما إتهامهم بقتله!

***

أسئلة مريرة

بعد سماع خطبة الجمعة دمعت عيناه وقال مخاطباً كل من يصل إليه صوته:

- التجار على المنابر، واللصوص على الخزائن، الأفاقون على «الشاشات»، القاتل فى ثوب الثائر، المقتول يصيحون شهيد، فمن أين يأتِ النصر يابلادى؟!

همس ذو الشارب الكثيف لمن معه:

- اعتقلوا هذا الأحمق، فذا خطر على الأمن القومى للبلاد.

***

الظل المقتول

بعد غربة طويلة، لم تنسه لذة نوم القيلولة فى ظل أشجار الحقل، حيث الهواء الرطب يداعب تضاريس وجهه وخصلات شعره، ويكشف الجلباب عن ساقيه، رغم مكيفات الهواء والأماكن المترفة التى يعيش فيها.

بعد عشرين عاماً عاد إلى قريته، مشوقاً لقيلولة الحقل، وجد الأسفلت الأسود والكبارى الخرسانية وضجيج السيارات وقد ابتلعوا الحقل وقتلوا الأشجار، دمعت عيناه كمن فقد عزيزاً لديه وعاد لغربته.

***

القصة الومضة

نقاء

اكتشف عقمه؛ فقضى العمر يهدي الدمى للأطفال اليتامى!

إبداع

أسكرته الكلمات؛ فخرجت أبيات الشعر تتراقص!

نصيب

عاش يتجنب المظاهرات.. قتلته رصاصة طائشة!

تدليس

قامت الثورة ضدهم.. ارتدوا أقنعةً جديدةً!

أمنية

منتفخًا يستعرض حرس الشرف.. تمنى لو تراهم زوجته المتسلطة!

عزلة

صنع مراكب ورقية ورسم نهرًا.. أبحرت المراكب وتركته وحيدًا!

صدمة

أدمن الفرجة على أجسامهن (بالفيس بوك).. صعقته صورة أخته عاريةً!

عزاء

صعدت روحه وهو يصلي.. هنأ المعزون أهله..

مكسب وخسارة

عادت محملةً بكنوز غربتها الطويلة.. وجدت ابنتها الوحيدة أمًّا من سفاح!

وحشية

احتضن عائلته اتقاء القصف لحظات.. واحتضنهم الركام الملون بدمائهم!

أعمار

ذهب لقتل صديقه الخائن.. مات قبل أن يصل إليه!

الفهـــرس

إهداء..... ٤
قدر..... ٥
قطتي الشيرازية ٦
صهوات اللذة ٧
استبداد الشوق..... ٨
سور الذكريات ٩
حفيدة فاطمة..... ١٠
الاختيار..... ١١
وصايا ثوري سابق؛..... ١٢
تحول..... ١٣
الحلاج الجديد..... ١٤
ثلاثة فناجين قهوة..... ١٥
قال المفسرون..... ١٦
مجنون..... ١٨
أمنية حزينة..... ١٩
الراقصة والتراب..... ٢٠
الشحاذ والملك..... ٢١
ثائر (فضائي)..... ٢٢
مسعود صانع الحلوى..... ٢٣
إخلاص الشيخ..... ٢٤
سورة الأنعام..... ٢٦
أوراق ملف الخدمة ٢٧

الصورة الصغيرة ٢٨
سير وسلوك ٢٩
آخر القيود ٣٠
العودة ٣١
مجذوب..... ٣٣
الميراث..... ٣٤
بكاء..... ٣٦
قصة قصيرة ٣٧
معشوقة أبدية ٣٨
عزلة لم تدم ٣٩
أيام المطر ٤٠
الرجل والكلب..... ٤١
مسخرة..... ٤٢
حكمة أخيرة..... ٤٣
شاعر أيروتيكي..... ٤٤
عدسات لاصقة..... ٤٥
سؤال قديم..... ٤٧
حادثة مكررة..... ٤٨
أسئلة مريرة..... ٤٩
الظل المقتول..... ٥٠
ما تيسر من سيرة العشق..... ٥١
التوقيت الشتوي..... ٥٤
مفارقة..... ٥٥
شهيد..... ٥٦

السيارة الزرقاء..... ٥٧
فى الزنزانة..... ٥٨
عشق مجنون..... ٥٩
وردة حمراء منكسة..... ٦٠
عرافة..... ٦١
مجنون!..... ٦٢
الفرح الحزين..... ٦٣
لذة الألم القديم..... ٦٤
حادثة مكررة..... ٦٦
أسئلة مريرة..... ٦٧
الظل المقتول..... ٦٨
القصة الومضة..... ٦٩
نقاء..... ٧١
إبداع..... ٧٢
نصيب..... ٧٣
تدليس..... ٧٤
أمنية..... ٧٥
عزلة..... ٧٦
صدمة..... ٧٧
عزاء..... ٧٨
مكسب وخسارة..... ٧٩
وحشية..... ٨٠
أعمار..... ٨١